المبحث الثالث

حوار مع ولي الشيطان

obeikandl.com

توضأ صاحبنا وجلس أمام كتاب الله في أدب وخشوع يقرأ ما شاء الله قراءته، وأحس بالسكينة تغمر المكان وبالصفاء يغمر الكيان وكأنما لم ترض تلك الحال الشيطان فأرسل إليه واحداً من أتباعه من الإنس لينتزعه من تلك السكينة وذلك الصفاء ولكن صاحبنا لم يأبه به ولم يلتفت إليه حتى انتهى من قراءته.

وهنا بادره ولي الشيطان في غيظ وسخرية وسأله: لماذا تقرأ القرآن؟

صاحبنا: أقرأه لأنه حياة القلوب لمن أراد حياتها، وهو نور الأبصار إلى الصراط المستقيم وهو معراج الروح إلى أفق طهور وجو ملائكي بل أن الملائكة لتتنزل من عليائها لتستمع إلى قارئ القرآن فرحة بما تسمع، روى البخاري:

«عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ (يعني أبعده من هذا المكان) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ بِمِثْلِ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ عَرَجَتْ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ ﷺ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ (أي لقراءتك) ثُمَّ قَالَ ﷺ: لَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[1].

كما أن قراءة القرآن من خير العبادات وأعظم القربات إلى الله!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ الله فَأَقْبِلُوا مَأْدُبَتَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ الله وَالنُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا يُعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ الله يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ كُلِّ حَرْفٍ عَشْرِ حَسَنَاتٍ، أَمَّا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ الٓمٓ حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» (رواه الحاكم)[2].

ولي الشيطان مقاطعًا: ما أنا بحاجة إلى درس في الوعظ..

صاحبنا: وما أنا بحاجة لأن يسمعني مثلك..

ولي الشيطان: (وقد اشتد غيظه) أنت متعصب للقرآن.

صاحبنا: هذا شرف لي، ولكني أود أن أسألك وأنت الرجل الذي يقول عن نفسه مثقف ويحمل كذا وكذا من المؤهلات العلمية، هل قرأت القرآن ولو مرة واحدة؟

ولي الشيطان: لم يحدث ذلك.

صاحبنا: يقولون: الإنسان عدو ما جهل ونظرتك إلى القرآن هي نظرة أبي جهل وما أحب لك أن تكون أبا جهل في حكمك على الأمور العادية فضلًا عن كتاب الله المجيد.

(١) فتح الباري - كتاب فضائل القرآن- باب ١٥: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن - الحديث رقم (٥٠١٨) . دار طيبة للنشر والتوزيع -الرياض- السعودية -الطبعة الأولى - ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٣٥٤). قال المنذري: رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه. وقال: تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح.

ولي الشيطان: (وقد استشاط غضبًا) هذه السخرية لا تليق بي وأنا الذي أحمل كذا وكذا من الدرجات العلمية ثم كيف تطلب مني أن أقرأ القرآن وأنا لما أعرف بعد طريق الإيمان بالله؟ أنني أدور في أربع حلقات متشابكة من التساؤل، إن حاولت الخروج من إحداها قادتني إلى الأخرى وهكذا..

أما الأولى فهي: لماذا لا يكون هذا الكون قد أوجد نفسه!؟

وأما الثانية فهي: لماذا لا يكون هذا الكون من صنع المصادفة؟

وأما الثالثة فهي: لماذا لا تكون هذه المادة أزلية؟

وأما الرابعة فهي: إذا كان الله قد خلق الخلق فمن الذي خلق الله؟

صاحبنا (مبتسمًا في إشفاق): اسمع مني أبين لك.

ولي الشيطان وقد عاد إليه الهدوء وعلته الدهشة: قل تسمع.

صاحبنا: لكي نكسر الحلقة الأولى أقول لك: لكي يوجد شيء نفسه لا بد أن يكون موجودًا قبل نفسه. فمثلًا لكي تخلق الشمس نفسها لا بد أن تكون الشمس موجودة معنى قبل وجودها ذاتا أي أنها فكرت في خلق نفسها قبل أن تكون.

ولكي يكون الإنسان موجودًا لا بد من أن يكون قد فكر في إيجاد نفسه قبل أن يكون، بمعنى أنك فكرت في إيجاد ذاتك قبل أن تكون فهل تتذكر أن ذلك حدث بالنسبة لك؟ أو حتى بالنسبة لآدم أبي البشر.. إنك بعد أن خرجت من بطن أمك لم تعلم من أمر الحياة شيئًا إلا بعد أن أصبحت وسائل الإدراك لديك مهيأة لذلك، فهل تستطيع أنت أو أي بشر على سطح الأرض أن يدعي العلم بتفاصيل الفترة التي سبقت ميلاده؟ إن ذلك لم يحدث ولن يحدث، وما أوضح إشارة القرآن، وما أبلغ عبارته بالنسبة إلى ذلك في موضعين كريمين أولهما: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وثانيهما: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهكذا ترى أن كسر تلك الحلقة لا يحتاج إلى عناء كبير، فهيا بنا إلى الثانية وهي المصادفة.. ولنسأل عقولنا أولًا: هل المصادفة تعقل أو لا تعقل؟ بالطبع لا تعقل، ولو قلنا أنها تعقل لكان ذلك اعترافا بوجود عقل حكيم وراء هذا الكون وهذا يصطدم بما أثبتناه في حق المصادفة.

ولنسأل عقولنا ثانية: هل المصادفة التي لا تعقل هي التي خلقت الإنسان الذي تميز بالعقل على سائر المخلوقات؟ والمعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه غيره. هل المصادفة التي لا تعقل هي التي خلقت الزوجين الذكر والأنثى هذا الخلق المختلف ثم ألفت بينهما هذا التآلف العجيب؟ هل المصادفة التي لا تعقل هي التي قدرت للشمس مدارها الذي لا تتجاوزه اقترابا من الكائنات فتحرقهم بنارها ولا ابتعادا عنهم فتتجمد الحياة في أوصالهم بل على وجه الأرض بصفة عامة؟ هل المصادفة التي لا تعقل هي التي جعلت الليل لباسًا والنهار نشورًا ومعاشًا ولو كان أحدهما سرمدًا لتوقفت الحياة على ظهر الأرض؟. هل؟.. وهل؟. أن ذلك كله مستحيل عقلًا.

ثم استمع إلى العلم وهو يهدم تلك الفرية فيقول «ديموقريطس» أحد عباقرة الإغريق القدامي في العلم: «لا يوجد شيء في الطبيعة اسمه صدفة بل الصدفة خرافة اخترعت لتبرير جهلنا» (قصة الحضارة تأليف ول ديورانت الجزء الثاني المجلد الثاني ص ٢٠٢).

ويلتقي العلم الحديث مع ديمقريطس على ذلك الأمر إذ يقول الدكتور «فرانك ألن» عالم الطبيعة البيولوجية:

«إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون -الأيدروجين - النتروجين - الأوكسجين - الكبريت.

ويبلغ عدد الذرات في الجزئ البروتيني الواحد ٤٠,٠٠٠ ذرة!! ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصرًا موزعة كلها توزيعًا عشوائيًّا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئيًا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة

كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًا لكي تؤلف هذا الجزئ، ثم لمعرفة طول المدة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزئ الواحد، وقد قام العالم الرياضي «تشارلز يوجين جاي» بحساب هذه العوامل فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزئ بروتيني واحد إلا بنسبة: ١ إلى ١٠ ^{١٦٠} أي بنسبة ١ إلى ١٠ مضروبًا في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به ولا التعبير عنه بكلمات.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات حتى ينتج جزئ واحد، ويتطلب تكوين هذا الجزئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها الرقم ١٠ مضروبا في نفسه ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ ^{٢٤٣} سنة) (نسأل الله طول العمر لكم يا أصحاب المصادفة حتى تشاهدوا ثمرة دعواكم المتهافتة. من منكم سيعيش هذه السنوات؟).

ثم إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزئيات؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها تصير غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سمومًا.

وقد قام العالم الإنجليزي (ج. ب ليثز) بحساب الطرق التي يكمن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠ ^{٤٨}) أي رقم ١٠ مضروبا في نفسه ٤٨ مرة (وهنا نسأل الله لكم سعة العقل يا أصحاب المصادفة) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلًا أن تتألف كل هذه المصادفات لتبني جزيئا بروتينيا واحدًا.

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل بها ذلك السر العجيب الذي لا ندرك من كنهه شيئًا إلا ما حدث عن نفسه فمن الذي وهبها الحياة؟ إنه الله الذي وحده خلق فسوى وقدر فهدى فجعل مثل ذلك الجزئ البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا لحياة فخلقه وصوره وأغدق عليه سر الحياة.

ثم يأتي الأستاذ أ.ك. موريسولن ليضع يده في أيدي العالمين السابقين ليخلق إلى الأبد - باب القول بأن هذا الكون أو شيء فيه قد وجد بالمصادفة على أساس رياضي بحت حيث يقول:

خذ عشرة «بنسات» كلًّا منها على حدة وضع عليها أرقامًا مسلسلة من (١) إلى (١٠) ثم ضعها في جيبك وهزها هزًا شديدًا ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من (١) إلى (١٠). إن فرصة سحب البنس رقم (١) هي بنسبة (١) إلى (١٠)، وفرصة سحب رقم (١)، (٢) متتابعين هي بنسبة (١ إلى ١٠٠) وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١، ٢، ٣) متتالية هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠) وفرصة سحب (١، ٢، ٣، ٤) متتالية هي بنسبة (١إلى ١٠,٠٠٠) وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من (١) إلى (١٠) بنسبة (١) إلى ١٠ ملايين.

والقصد من هذا المثل البسيط أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة[١].

وما أظن حلقة المصادفة إلا وقد تهشمت، فهيا بنا إلى الثالثة ألا وهي: أزلية المادة، وهنا يتساءل العقل: كيف أقول بأزلية المادة الصماء البكماء العمياء التي يطرأ عليها التغيير والتبديل. إنها سطحية تفكير تأباها العقول المستنيرة، ويقف العلم إلى جانب تلك العقول إذ يقول الدكتور «جون كليفلاند كوثران» من علماء الكيمياء والرياضة:

«وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضًا أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية وتستطيع أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقًا وهو منذ أن

(١) الفصل الأول «عالمنا الفذ» من كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» ص٤٩.

خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان»[١].

وصدق الله العظيم حين يقول:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣].

وحين يقول: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وما أرانا بحاجة إلى إطالة الحديث عن هذه الحلقة المتهافتة التي تكسرت بيسر وسهولة؛ لأنها تحمل في ذاتها عوامل تكسيرها، ولننتقل إلى الحلقة الأخيرة، وهي:

خلق الله الخلق فمن الذي خلق الله؟

والحقيقة أن هذا السؤال خطأ في تركيبه، لأنك تقول أن الله قد خلق الخلق وأثبت بذلك القدرة له تبارك وتعالى على الخلق فكيف تطلب له خالقا؟ إن هذا اضطراب في التفكير ولو افترضنا جدلا صحة هذا السؤال -أقول لو افترضنا جدلا- لترتب عليه سؤال ثان هو: من الذي خلق الذي خلق الله؟ ثم سؤال ثالث هو: من الذي خلق الذي خلق الذي خلق الله؟ وهكذا يؤدي بنا التسلسل إلى ما لا نهاية. وهذا أمر يرفضه العقل إذ لا بد من خالق يكون قائمًا بذاته تفتقر كل الموجودات إليه وهو الغني عنها لأنه واجب الوجود، وقانون السببية ينتهي بنا إلى ذلك وخلاصته دون تعقيد:

«إن شيئًا مما هو ممكن لا يحدث بنفسه ولا من غيره، لأنه لا يحمل في ذاته سبب وجوده، ولا يستقل بإحداث شيء، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ لابد لوجوده ولتأثيره من سبب خارجي وهذا بدوره إن لم يكن موجودًا بنفسه احتاج إلى غيره فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب».

---

(١) وازن بين هذا وما كان يقول لنا مدرسو الكيمياء حينما كنا طلبة صغارًا بالمدارس الإعدادية والثانوية، وهو: المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدمٍ، وكنا نردد خلفهم هذا الكلام كالببغاوات!.

واستمع إلى ما يقوله «أرسطو» تلميذ «أفلاطون» في الفصل السادس من الجزء الثاني عشر من كتاب «ما وراء الطبيعة»:

«إنه يوجد حتما ذات أزلية قادرة على إحداث التغييرات، وإن هذه الذات يجب أن تكون غير مادية وأن تكون موجودة بالفعل لا بمجرد القوة والإمكان وإلا لما حدث شيء في الوجود، إنه لا شيء يتحرك مصادفة بل لابد من وجود سبب معين لحركته، إن الخشبة الغفل التي لم تدخل صنعة النجار لا تتحرك بنفسها ولكن بصنعة النجار».

ونزيد الأمر وضوحًا فنقول:

إن بعض الناس يقولون: إذا كان الله موجودًا كما يقول المؤمنون، فلماذا لا نراه بأعيننا ولا ندركه بحواسنا كما ندرك ونرى سائر الموجودات؟ وهل يسوغ لنا أن نؤمن بما لانراه؟

والجواب: إن حصر الموجودات فيما يُرى ويُحس غير صحيح، فكم من موجودات لا تُحس ولا تُرى، كما أن حصر وسائل المعرفة في الإدارك والحس غير صحيح كذلك.

فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفطرة، وعن طريق العقل والفكر، وعن طريق البصيرة والإلهام كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية.

إن علماء الفلك الآن يقدرون وجود كواكب بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية وقدروا مواقعها والأبعاد بين بعضها وبعض؛ لأن وجودها في المواقع التي حددوها يفسر لهم آثارًا وظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه، ويتبين بالملاحظات العلمية صحة الفرض الذي فرضوه.

فهل يلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم يحسوه مع أنهم اهتدوا إليه بالمنطق الرياضي الذي يعتمد على الأرقام لا على الأوهام.

إن هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر، فكيف نسلم بهذا المنطق ونستخدمه في علوم الطبيعة والفلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى جل جلاله.

يقول الدكتور البحاثة دي نوى:

«كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لا يستطعيون أن يدركوه على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور «الله» إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب. فإن المتصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل، وليس الكهرب قابلًا للتصور في كيانه المادي وأنه مع هذا لأثبت في أثاره من قطعة الخشب»[1].

أما عن السؤال الذي تقدم معنا وهو خلق الله الخلق ....إلخ، فلا يجز عن مؤمن إذا مسه طائف من الشيطان بهذا الوسواس لأنه وسواس قديم أشار إليه معلم الإنسانية ﷺ وبين كيفية الخلاص منه في الحديثين الشريفين التاليين:

الحديث الأول:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ**»[2].

ومعنى قوله: آمنت بالله أي الإعراض عن هذا الخاطر والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه. قال الإمام المازري رحمه الله:

«**ظاهر هذا الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها. قال: والذي يقال في هذا المعنى إن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا أوجبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرًا طارئًا بغير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل ينظر فيه. وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة، فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها**».

---

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين للعقاد.

(٢) صحيح مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان - باب الوسوسة في الإيمان.

الحديث الثاني: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[1].

ومعنى فليستعذ بالله ولينته: أي إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلى الله في دفع شره وليعرض عن الفكر في ذلك، وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته وليبادر إلى قطعها بالاشتغال عنها.

واستمع إلى قصة الإمام أبي حنيفة الطريفة مع أحد الملاحدة في ذلك الشأن:

روي أن ملحدًا من علماء الروم ناظر علماء الإسلام فأفحمهم إلا حمادًا شيخ أبي حنيفة، ومع هذا لم يظهر حماد على الدهري. وفي اليوم الثاني اجتمع الناس بالجامع وصعد الملحد المنبر وطلب المناظرة وأعلن تحديه لعلماء الإسلام، فظهر أبو حنيفة من بين الصفوف حتى إذا كان على مقربة من المنبر قال: ها أنا ذا جئت أناظرك.

ولكن عين الملحد تقحَّمَت[2] الإمام الأعظم فاستصغر شأنه لحداثة سنه، ولكن الإمام تحداه إذ قال: هات ما عندك.

فعجب الدهري من جرأة أبي حنيفة وقال له: أيصدق العقل أن يوجد أول ليس قبله شيء؟

فأجابه الإمام: نعم، وأردف قائلًا: أتعرف العدد؟

قال الدهري: نعم.

---

(١) صحيح مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان - باب الوسوسة في الإيمان.

(٢) تقحمت الدابة براكبها: أي شردت به، وربما طوحت به في وهدة. فكأن الملحد نظر إلى الإمام الأعظم فشردت عينه عنه استصغارًا لشأنه. انظر المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة، مكتبة الشروق الدولية. الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. مادة (ق ح م).

قال أبو حنيفة: فما قبل الواحد؟

قال الدهري: هو الأول فليس قبله شيء.

قال أبو حنيفة: كذلك الله سبحانه وتعالى.

قال الدهري: في أي مكان، فكل موجود لا بد له من مكان.

فسأله الإمام: إن كان يعرف اللبن، فأجابه أنه يعرفه، ثم سأله: أفي هذا اللبن زبد؟

قال الدهري: نعم.

قال أبو حنيفة: في أي مكان منه؟

قال الدهري: لا يختص بمكان دون مكان.

قال الإمام: كذلك الله سبحانه وتعالى.

قال الدهري: إلى أي جهة يتجه؟ وكل شيء لا يخلو من الجهات.

قال الإمام: إذا أشعلت السراج فإلى أي جهة يتجه نوره؟

قال الدهري: تستوي لنوره الجهات.

قال الإمام كذلك الله خالق السماوات والأرض.

قال الدهري: وماذا يعمل هو؟

قال الإمام سألت هذه الأسئلة وأنت على المنبر وأجبتك عنها وأنا على الأرض، والآن أنزل لأصعد أنا المنبر، فنزل الدهري وصعد الإمام وقال: سألتني عن عمل الله، عمله جل شأنه: إذ كان على المنبر كافر مثلك أنزله، وإذا كان على الأرض مؤمن مثلي رفعه، وكل يوم هو في شأن.

obeikandl.com

وهكذا بكسر هذه الحلقة يتم كسر الحلقات الأربع لتتحرر من أغلالها، وتنطلق على طريق الإيمان بالله إن كنت من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وينظر صاحبنا إلى الجالس معه فإذا بالصمت يعلوه وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم يقول في ذلة وانكسار:

آمنت بالله رب العالمين.

obeikandl.com